مجلّة نصف سنوية محكّمة تصدر عن قسم الدراسات الفلسفية في بيت الحكمة ـ بغداد
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ٦٨٢ لسنة ١٩٩٩
رقم الإيداع الدولي ISSN ٠٩٣٤-٢٢٢٤
info@bayalhikma.iq

تزفيتان تودوروف وفلسفة التاريخ:
نقد الحداثة والاستعمار

تاريخ تقديم البحث:- ٢٠٢٥/٤/١٣
تاريخ قبول البحث:- ٢٠٢٥/٤/٢٢

أ.م.د. طالب محمد كريم(*)

الملخص

يتناول هذا البحث بالنقد والتحليل فكر تزفيتان تودوروف في ضوء فلسفة التاريخ، من خلال استعراض رؤيته لمفاهيم الآخر، والحداثة، والاستعمار. ويُسلّط الضوء على الكيفية التي تحوّلت بها الحداثة الأوروبية، من مشروع تحرري قائم على العقل والإنسانية، إلى أداة للهيمنة وتكريس المركزية الغربية. كما يناقش البحث تمثيل الآخر في كتاب فتح أمريكا، ويُبرز كيف استُخدم الخطاب المعرفي الغربي لتبرير الإقصاء الثقافي والسياسي للشعوب المستعمَرة. ومن خلال المقارنة بين تودوروف ومفكرين آخرين مثل مونتيني وفانون وسعيد، يُظهر البحث أهمية مراجعة السرديات التاريخية المهيمنة، والدعوة إلى بناء علاقات حضارية قائمة على الاعتراف المتبادل، والتعددية الثقافية.

الكلمات المفتاحية: تزفيتان تودوروف، فلسفة التاريخ، نقد الحداثة، الاستعمار، الآخر.

المقدمة

تعد فلسفة التاريخ إحدى أكثر الحقول الفكرية تعقيدًا، حيث يتداخل فيها البعد الزماني مع القضايا الثقافية والاجتماعية والسياسية، مما يجعلها عرضة لتعدد الرؤى والتفسيرات. من بين المفكرين الذين قدموا إسهامات مهمة في هذا المجال، يبرز اسم الفيلسوف البلغاري الفرنسي تزفيتان تودوروف، الذي تناول في أعماله النقدية العديد من القضايا المرتبطة بالآخر، الاستعمار، والمركزية الأوروبية. يعد كتابه فتح أمريكا مثالاً بارزًا على فكر تودوروف الذي يستعرض العلاقة بين الغرب والشعوب الأصلية في أمريكا، ويعيد صياغة مفهوم الآخر في التاريخ الحديث.

(*) الجامعة المستنصرية/ كلية الاداب- قسم الفلسفة
dr.talb.m@uomustansiriyah.edu.iq

Semi-annual journal issued by Department of Philosophical Studies In Bayt Al-Hikma
No.of deposit at Library and Archives(682)1999
Issn.2224-0934
Info@baytalhikma.iq

ومـن خـلال هـذا العمل وغـيره من أعمالـه، يقدم تـودوروف صـورة جديـدة عـن التاريـخ والفكر الغـربي، التـي تسـلط الضـوء عـلى التوتـرات بين الهويـات المختلفة وضرورة تفكيـك النظرة الغربية المهيمنة.

إن موقـف تـودوروف في نقـده للمركزيـة الأوروبية يأتي في سـياق محاولاته لتفكيك الأسس الفكرية التي سـاعدت في تشكل الهيمنة الأوروبية عـلى باقي حضارات العالم، خاصة بعد اكتشـافات العـالم الجديـد في القرنين الخامس عشر والسـادس عـشر. ويتضـح أن الأسـباب التـي دفعتـه إلى هذا النقد هي مزيج من التأثيرات الشخصية، الفكرية، والثقافيـة. نشـأ تـودوروف في بيئـة ثقافية مشـبعة بالفكـر الغـربي المعاصر، حيث تفاعـل مع ما حملته الفلسـفات الفرنسـية مـن تأثـيرات، خصوصًـا في سـياق فـترة ما بعـد الاسـتعمار، التي كانت تشـهد تزايـد الاهتـمام بموضوعـات الهويـات المتعـددة والمسـاواة بـين الشـعوب. وهـذا مـا يجعلـه يطرح تسـاؤلات حول كيفية تعامل الفكـر الأوروبي مع الشـعوب الأصليـة والأعـراق الأخـرى، وينتقـد القيم الاستعمارية التي سادت قرونًا طويلة.

بالإضافـة إلى التأثـيرات الثقافيـة، لا يمكـن إغفـال التأثـيرات السياسـية التـي واجههـا تـودوروف خـلال فـترة حياته في ظـل الصراعات السياسـية والاجتماعية، سـواء في أوروبا أو في ظل الأيديولوجيـات التـي كانـت تتصاعـد في فـترات مـا بعد الحـرب العالميـة الثانية. تـودوروف، الذي نشـأ في فترة كانت تشـهد تفكـك الإمبراطوريات الاسـتعمارية الكبرى، تأثر بشـكل كبـير بموجات الفكر ما بعد الاسـتعماري الذي كان يتنامى على يد مفكرين مثل إدوارد سـعيد وفرانز فانون، مما دفعه إلى إعـادة النظر في الطريقـة التي يعرض بها الغرب نفسه والآخرين.

يشـمل هذا البحـث تحليـلًا لفكر تـودوروف حـول الآخـر، وأثر ذلـك في الدراسـات المعاصرة حول التاريخ والحضارة، بالإضافة إلى مناقشة آرائه في سياق الفكر الغربي المعاصر. كما سيتناول البحث موقف تودوروف من الحداثة والاسـتعمار، وكيف يمكن أن تسـهم رؤيتـه في إعادة تفسـير العلاقات الثقافيـة في العصور الحديثـة، مع التركيز على ردود الفعـل النقديـة عـلى أفكـاره من خلال إسـهامات مفكريـن آخريـن في هذا السـياق. تـبرز أهمية هذا البحـث في كشـف كيـف أن فكر تـودوروف يقدم دعوة لفهم أعمق للظروف التاريخية التي شـكلت الهويـات الثقافيـة وأدت إلى صدامـات الهويـة في العلاقات الدولية.

الأسـباب التـي دفعـت تـودوروف إلى هـذا الموقف

موقـف تـودوروف مـن الاسـتعمار والمركزية الأوروبيـة لم يكن مجرد موقف فكري مجرد، بل كان مدفوعًا بعدد من الأسباب الجوهرية.

أولًا:ان تـودوروف قد نشـأ في ظل بيئة فكريّة متأثـرة بالتحـولات الكـبرى في الفكـر الأوروبي

مجلّة نصف سنوية محكّمة تصدر عن قسم الدراسات الفلسفية في بيت الحكمة ـ بغداد
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ٦٨٢ لسنة ١٩٩٩
رقم الإيداع الدولي ISSN ٠٩٣٤-٢٢٢٤
info@bayalhikma.iq

في القرن العشرين، حيث كان يتم إعادة تقييم الاستعمار بعد الحربين العالميتين، وفشل الأنظمة الاستعمارية في الحفاظ على هيمنتها.

ثانيًا: تأثر تودوروف بموجات الفكر ما بعد الاستعماري التي بدأت تنتشر في الدراسات الأكاديمية، حيث حاول المفكرون من مختلف أنحاء العالم محاربة الصورة النمطية التي يقدمها الغرب عن الشعوب الأخرى.

ثالثًا: يمكن القول إن تودوروف كان يسعى إلى ربط التاريخ الفلسفي الأوروبي بالمشاكل الفلسفية الكبرى التي تواجه المجتمعات المعاصرة، مثل التعددية الثقافية والمساواة.

التأثيرات البيئية والثقافية والسياسية

تأثرت أفكار تودوروف بشدة بالتطورات الثقافية والسياسية التي كانت تهيمن على أوروبا في منتصف القرن العشرين. بداية من الخروج من الاستعمار إلى تطور حركات التحرر في المستعمرات، وصولًا إلى تأثير الفلسفات النقدية مثل الفلسفة الفرنسية المعاصرة، وخصوصًا في ظل تأثير الفيلسوف ميشيل فوكو وبيير بورديو. كما أن تودوروف كان يتفاعل مع النقاشات الثقافية المستمرة حول الهويات، بما في ذلك تلك التي دارت حول تفاعل أوروبا مع ثقافات الشعوب المستعمَرة.

التأثر بالفكر الآخر

تأثر تودوروف أيضًا بالفكر الأنجلوساكسوني في مجال الدراسات الثقافية والتاريخية، وكذلك بالفكر الفلسفي الفرنسي الذي تركز على تفكيك السلطة والعلاقات المهيمنة. لا يمكن إغفال تأثير المفكرين مثل إدوارد سعيد في سياق الاستشراق، الذي كان له دور كبير في إعادة تصوّر صورة الآخر في الثقافة الغربية، وكذلك تأثره بأعمال مفكرين مثل جان بول سارتر حول مفهوم الآخر في سياقات وجودية وفينومينولوجية.

الباب الأول: مفهوم الآخر في فلسفة تودوروف

تعريف (الآخر) في الفلسفة الغربية

يُعد مفهوم الآخر من المفاهيم المحورية في الفلسفة الغربية، خاصة منذ العصور الحديثة، حيث أصبح مسألة تتعلق بالهوية، بالذات، وبالعلاقة مع العالم. ويمكن القول إن الوعي بالذات لا يتحقق إلا من خلال إدراك الآخر بوصفه مختلفًا، ومن خلال هذا الإدراك تُؤسّس الذات صورتها ومعناها.

أولًا: الآخر في الفلسفة الكلاسيكية والحديثة

في الفلسفة اليونانية الكلاسيكية، كان الآخر يُنظر إليه بعده البرابرة مقابل المتحضرين من اليونانيين، حيث كان يُنظر إلى الشعوب غير اليونانية بعدِها أدنى مرتبة، وغير قادرة على الحكم

Semi-annual journal issued by Department of Philosophical Studies In Bayt Al-Hikma
No.of deposit at Library and Archives(682)1999
Issn.2224-0934
Info@baytalhikma.iq

أو التنظيم السياسي. هذا التمييز بين نحن وهم وضع أساسًا مبكرًا لثنائية الهوية والآخر، والتي ستأخذ لاحقًا أشكالًا أكثر تعقيدًا.

تتبلور المسألة فلسفيًا بصورة واضحة مع الفيلسوف الألماني غيورغ فيلهلم فريدريش هيغل (١٧٧٠-١٨٣١)، في كتابه فينومنولوجيا الروح (١٨٠٧)، حيث يقدم جدلية السيد والعبد بوصفها نموذجًا لفهم العلاقة بين الذات والآخر. يرى هيغل أن الوعي الذاتي لا يكتمل إلا من خلال صراع يُفضي إلى اعتراف متبادل بين الذات والآخر؛ إذ يحتاج كل طرف إلى اعتراف الآخر كي يرسّخ هويته. لكن هذا الاعتراف لا يكون سلميًا، بل يتم غالبًا عبر علاقة قوى تتأسس على الهيمنة.[١]

هذا الفهم الهيغلي كان له تأثير واسع في الأدبيات الفلسفية والاجتماعية، حيث بات الآخر ضرورة أنطولوجية (وجودية) لتكوين الذات، لا مجرد خارج أو خصم.

ثانيًا: الآخر بين الوجودية والتحليل النفسي

في القرن العشرين، يتخذ مفهوم الآخر بُعدًا مختلفًا في الفلسفة الوجودية، خاصة في أعمال جان بول سارتر. ففي كتابه الوجود والعدم (١٩٤٣)، يعرض سارتر الآخر بوصفه تهديدًا للحرية الفردية، إذ إن وجود الآخر يفرض على الذات نظرة خارجية تُحوّلها إلى موضوع (object) بعد أن كانت ذاتًا حرة. يقول سارتر: "إنني أكتشف ذاتي كما يراها الآخر، ولا إستطيع الهروب من هذه النظرة التي تحولني إلى شيء...الآخر هو ذاك الذي يسلبني ذاتيتي حين ينظر إلي". [٢]

أما إيمانويل ليفيناس، فقد انطلق من نقد الرؤية السارتريّة ليطرح تصورًا أخلاقيًا جذريًا عن العلاقة بالآخر، حيث يرى أن الآخر لا يُختزل في مفاهيم الذات، بل هو وجه يُوجب عليّ المسؤولية، ويؤسس للأخلاق من خارج كل مقولات الوعي والسيطرة. [٣]

ثالثًا: الآخر في الخطاب الاستعماري – من هيغل إلى الاستشراق

مع تطور الإمبراطوريات الغربية وامتداد الاستعمار الأوروبي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أصبح مفهوم الآخر أداة أيديولوجية تُستخدم لتبرير إخضاع الشعوب غير الأوروبية. هنا يأخذ الآخر شكلًا ثقافيًا وسياسيًا، بوصفه الكائن الذي يحتاج إلى الإنقاذ، التأديب، والتمدين.

يُقدّم إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق (١٩٧٨) تحليلًا عميقًا لكيفية بناء الغرب لصورة الشرق كآخر غامض، سلبي، شهواني، وخاضع، مقابل الذات الغربية العقلانية، المتفوقة، والمتحضرة. يرى سعيد أن الغرب لم يكتفِ بملاحظة الشرق، بل اخترعه كآخر ضروري لبناء ذاته الثقافية والاستراتيجية. بهذا المعنى، فإن الآخر ليس مجرد حقيقة أنثروبولوجية، بل هو بناء خطابي يُنتج ضمن علاقات قوة. يقول سعيد:

مجلّة نصف سنوية محكّمة تصدر عن قسم الدراسات الفلسفية في بيت الحكمة ـ بغداد
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ٦٨٢ لسنة ١٩٩٩
ISSN ٠٩٣٤-٢٢٢٤ رقم الإيداع الدولي
info@bayalhikma.iq

« الاستشراق ليس مجرد خيال أوروبي متعال عن الشرق، بل هو تأسيس سياسي واجتماعي وأيديولوجي لمواقع السلطة» (٤)

رابعًا: الآخر في فكر فرانز فانون – الاستعمار كتشويه وجودي

يمضي فرانز فانون، الطبيب والمفكر المارتينيكي، أبعد من سعيد حين يحلل الاستعمار بوصفه تشويهًا وجوديًا ونفسيًا للآخر. ففي كتابه معذبو الأرض (١٩٦١)، يرى فانون أن الاستعمار لا يكتفي بفرض السيطرة المادية، بل يسعى إلى محو هوية الآخر، وتحويله إلى مرآة مشوهة تعكس تفوق المستعمِر.

يُظهر فانون أن الذات الاستعمارية تُعرّف نفسها من خلال نفي الآخر: فهو المتخلّف، العنيف، غير العقلاني. في المقابل، فإن عملية تحرر الشعوب المستعمَرة لا تكتمل إلا حين يتحرر الآخر من صورة العبد التي فرضها عليه الخطاب الغربي.إذ يقول: " المستعمِر يصنع المستعمَر، إنه يتخلق به ويُعيد إنتاجه وفق صورته المشوّهة" (٥)

يتضح من هذا العرض أن مفهوم الآخر في الفلسفة الغربية شهد تحولات من كونه مجرد نقيض للذات إلى أن أصبح عنصرًا أساسيًا في تشكيلها. كما أصبح مفهومًا مشحونًا بالأبعاد السياسية والثقافية، خاصة مع توسع الاستعمار وتكوّن المركزية الأوروبية.

هذا الإرث الفكري سيكون الخلفية التي انطلق منها تزفيتان تودوروف ليُعيد النظر في العلاقة مع الآخر، ويُفكك من خلال أعماله الخطابات التي بنت صورة الآخر ضمن سياقات الاستعمار، الحداثة، والتفوق الغربي.

الآخر في كتاب فتح أمريكا: مسألة الآخر

يُعد كتاب فتح أمريكا: مسألة الآخر لتزفيتان تودوروف واحدًا من أكثر الأعمال تأثيرًا في مجال نقد الاستعمار وتحليل آليات تمثيل الآخر في الخطاب الغربي. يتناول الكتاب مرحلة الاكتشاف الأوروبي لأمريكا، ولا سيما حملة كريستوفر كولومبوس، بوصفها نموذجًا لكيفية تشكيل صورة الآخر في سياق استعماري، ويقدم تحليلًا نقديًا للكيفية التي بُنيت بها العلاقة بين الذات الأوروبية والآخر الأميركي.

أولًا: الآخر بوصفه نتاجًا لخطاب الهيمنة

يرى تودوروف أن عملية فتح أمريكا لم تكن مجرّد غزو جغرافي أو عسكري، بل كانت تأسيسًا لرؤية ثقافية جديدة تُقصي الآخر وتُنتج تصورًا متفوقًا للذات الأوروبية. فالسكان الأصليون لم يُنظر إليهم بوصفهم كائنات إنسانية مكافئة، بل كمادة قابلة للتهذيب أو الإبادة، تبعًا لدرجة قابليتهم للتمدن في نظر الأوروبيين. وهنا يُميز تودوروف بين ثلاثة أنماط في التعامل مع الآخر.

١ – **التجاهل**: حيث يُلغى الآخر من الوعي

Semi-annual journal issued by Department of Philosophical Studies In Bayt Al-Hikma
No.of deposit at Library and Archives(682)1999
Issn.2224-0934
Info@baytalhikma.iq

الأوروبي، ويُعامل وكأنه غير موجود.

٢- **الاستيعاب القسري**: حيث يُفرض على الآخر أن يتخلى عن ثقافته وهويته لصالح نموذج (الحضارة).

٣-**الإبادة والإقصاء**: عندما يُفشل الآخر في التماهي مع الذات الأوروبية، يُقصى تمامًا، كما حدث في ممارسات الإبادة الجماعية ضد الشعوب الأصلية. (٦)

هذا التصنيف يكشف عن منطق استعماري مستبطن في بنية الثقافة الغربية منذ لحظة الاكتشاف، ويضع الاستعمار في سياقه المعرفي-الخطابي، لا السياسي فقط.

ثانيًا: المقارنة مع مونتيني – رؤية مبكرة للآخر

يُثير تودوروف في سياق تحليله مقارنة غير مباشرة مع الكاتب الفرنسي ميشيل دي مونتيني (Montaigne) يُقارن تودوروف بين رؤية الاوروبيين للسكان الاصليين في امريكا، وبين ما طرحه مونتيني في المقالات، خاصة في مقالته عن آكلي لحوم البشر، التي دافعت عن انسانية الآخر وأدانت التحيز الحضاري. (٧)

يشير تودوروف إلى أن رؤية مونتيني تُعد محاولة مبكرة لفهم الآخر ضمن منظور إنساني، لا بوصفه أدنى أو أداة لإثبات التفوق الحضاري. ومن هذا المنطلق، تكتسب المقارنة بين تودوروف ومونتيني طابعًا فلسفيًا عميقًا، إذ يلتقي كلاهما في نقد النزعة الأوروبية التي تضع الذات الغربية في مركز العالم. غير أن تودوروف يذهب أبعد من مونتيني، إذ يتناول الخطاب الاستعماري من داخله، محللًا آلياته وتناقضاته، بينما يكتفي مونتيني بلمسة أخلاقية نقدية تُعبّر عن حس إنساني مبكر.

ثالثًا: الاستعمار كتشيئ معرفي – نحو رؤية فانونية

يتقاطع تودوروف في تحليله مع رؤية فرانز فانون، لا سيما في تأكيده على أن الاستعمار ليس مجرد مشروع سياسي عسكري، بل منظومة معرفية وثقافية تهدف إلى السيطرة على الآخر وتحريف وجوده. يرى فانون في معذبو الأرض أن العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر قائمة على تشويه مزدوج: تشويه صورة الذات في وعي الآخر، وتشويه الآخر في وعي الذات.

وبالمثل، يُبرز تودوروف أن الأوروبيين لم يحاولوا فهم حضارات أمريكا اللاتينية بوصفها أنظمة ثقافية مكتملة، بل فسروا كل ما يرونهعلى وفقٍ لقوالبهم الخاصة. ويُقدم كريستوفر كولومبوس مثالًا حيًا على ذلك: فقد كان يُسقط توقعاته الدينية والاقتصادية على السكان الأصليين، فلم يرَ فيهم سوى وسائل لتحقيق رسالة الحضارة، أو في أحسن الأحوال، أدوات لتوسيع إمبراطورية مسيحية-أوروبية. (٨)

مجلّة نصف سنوية محكّمة تصدر عن قسم الدراسات الفلسفية في بيت الحكمة ـ بغداد
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ٦٨٢ لسنة ١٩٩٩
ISSN ٠٩٣٤-٢٢٢٤ رقم الإيداع الدولي
info@bayalhikma.iq

رابعًا: الآخر بوصفه مرآة للذات الغربية

تُظهر قراءة تودوروف أن الآخر لا يُستدعى في الخطاب الغربي من أجل المعرفة، بل من أجل تثبيت صورة الذات. فالأوروبي لا يكتشف الآخر، بل يُعيد اختراعه ليخدم تصوره لنفسه. بهذا، تصبح العلاقة مع الآخر غير متكافئة من حيث الإنتاج المعرفي: الآخر لا يُعبّر عن ذاته، بل يتم تمثيله عبر قوالب أيديولوجية غربية.

يتقاطع هذا التحليل مع مفاهيم ميشيل فوكو حول العلاقة بين المعرفة والسلطة، حيث لا تُنتج المعرفة عن الآخر خارج دوائر السيطرة، بل هي شكل من أشكال الهيمنة. وفي هذا السياق، يعيد تودوروف قراءة التاريخ بوصفه سجلًا للعلاقات المعرفية–السلطوية، لا لمجرى الأحداث فقط. بل هي كما يقول: " دائمة التشابك مع السلطة، فلا وجود لمعرفة بريئة، بل كل معرفة هي تموضع ضمن شبكة من القوى [٩]

بهذا المعنى، تصبح تمثيلات الآخر شكلاً من أشكال الهيمنة الخطابية. وفي هذا السياق، يعيد تودوروف قراءة التاريخ لا بوصفه مجرى أحداث متسلسل، بل بوصفه سجلاً للعلاقات المعرفية–السلطوية التي تُشكّل صورة الذات والآخر على السواء.

خامسًا: نقدٌ مبطن للحداثة الغربية

عبر تحليله لبنية الخطاب الاستعماري، يُقدم تودوروف نقدًا مبطنًا للحداثة الغربية، التي ربطت التقدم بالحضارة الأوروبية وحدها، وعدّت الشعوب الأخرى في درجة دنيا من التطور. وبذلك، فإن الآخر في خطاب الحداثة لا يُعامل ككائن متكافئ، بل كمرحلة سابقة للذات الغربية في تطورها. وهذا بالضبط ما ينتقده تودوروف: الآخر ليس بدائيًا، بل مختلف، وهو يستحق أن يُفهم ضمن سياقه، لا أن يُقاس على النموذج الأوروبي* .

يمكن القول إن تودوروف، في كتابه فتح أمريكا، يُعيد تشكيل مفهوم الآخر بوصفه أداة نقدية لفهم التاريخ، وليس مجرد مقولة أنثروبولوجية. فهو لا يُدين الاستعمار فقط من منطلق أخلاقي، بل يُظهر كيف أن الاستعمار كان مشروعًا لإعادة إنتاج الذات الأوروبية عبر تمثيل الآخر في صورته الأكثر تهميشًا. ويُعد هذا التمثيل استمرارًا لنمط فلسفي وثقافي طويل بدأ مع هيغل وتكرّس مع خطاب الحداثة، ليُنتقد لاحقًا من قبل مفكرين مثل سعيد وفانون.

Semi-annual journal issued by Department of Philosophical Studies In Bayt Al-Hikma
No.of deposit at Library and Archives(682)1999
Issn.2224-0934
Info@baytalhikma.iq

نقد المركزية الأوروبية وصدام الهويات

يُعد نقد المركزية الأوروبية أحد المحاور الأساسية في فكر تزفيتان تودوروف، ويُشكل امتدادًا لتحليله لمفهوم الآخر وتفكيكه للخطاب الاستعماري الغربي. فالمركزية الأوروبية (Eurocentrism) لا تتجلى فقط في سلوكيات استعمارية عسكرية أو اقتصادية، بل في بنية معرفية وفكرية عميقة قامت على افتراض تفوق حضاري للذات الغربية، جعلت منها مرجعًا تُقاس عليه باقي الثقافات، ومركزًا تدور حوله الأطراف.

أولًا: ما هي المركزية الأوروبية؟

تقوم المركزية الأوروبية على فكرة أن أوروبا (والغرب عمومًا) هي النموذج الأعلى للتطور البشري، وأن باقي الشعوب تمر بمراحل ما قبل حداثية في طريقها إلى اللحاق بهذا النموذج. هذا التصور لا يرى الاختلاف الثقافي بوصفه تنوعًا، بل كدرجات في سلم التطور. ومن هنا، فإن الثقافات الأخرى تُصنَّف على وفق قربها أو بعدها عن النموذج الأوروبي، مما يبرر ضمنيًا الهيمنة، سواء أكانت ثقافية أم سياسية أم اقتصادية. يرى تودوروف أن هذه الرؤية المتعالية تُنتج صورة مشوهة للآخر، وتحول العلاقة معه إلى علاقة تبعية معرفية، حيث يُفهم الآخر من خلال قوالب مسبقة لا تُنصف تجربته أو تاريخه. (١٠)

ثانيًا: من المركزية إلى الهيمنة – العلاقة بين الغرب والآخر

في إطار هذه المركزية، تتأسس علاقة غير متوازنة بين الغرب والعالم غير الأوروبي. وتُستخدم مفاهيم مثل التقدم، التمدن، والتحديث لتبرير مشاريع استعمارية أو تدخلية تحت غطاء نقل الحضارة. يتقاطع هذا مع ما كشفه إدوارد سعيد في الاستشراق، حيث بيّن أن الخطاب الغربي لم يكن بريئًا أو محايدًا، بل كان" أداتيًا، يخدم سلطة سياسية وثقافية"، ويهدف إلى " السيطرة وإعادة إنتاج الآخر في صورة تخدم الهيمنة الغربية". (١١)

وبهذا لم يقدم الشرق كما هو، بل كما أراد الغرب أن يراه، في سياق علاقة معرفية،قهرية

يرى تودوروف أن هذه العقلية نفسها كانت وراء إبادة السكان الأصليين في أمريكا، وأنها تستمر اليوم في صور أخرى: من تدخلات سياسية باسم حقوق الإنسان، إلى فرض نماذج اقتصادية وثقافية عبر العولمة. هذا ما يدفعه لاعتبار فتح أمريكا لحظة تأسيسية في بناء علاقة مهيمنة بين الغرب وبقية العالم.

مجلّة نصف سنوية محكّمة تصدر عن قسم الدراسات الفلسفية في بيت الحكمة ـ بغداد
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ٦٨٢ لسنة ١٩٩٩
رقم الإيداع الدولي ISSN ٠٩٣٤-٢٢٢٤
info@bayalhikma.iq

ثالثًا: صدام الهويات – من الاستيعاب إلى المقاومة

أحد الآثار المباشرة للمركزية الأوروبية هو نشوء ما يمكن تسميته بصدام الهويات. فعندما تُفرض ثقافة معينة كمعيار وحيد، فإن الثقافات الأخرى إما أن تُستوعب قسرًا، أو تقاوم للحفاظ على هويتها. وهنا تظهر إشكالية التعددية الثقافية: كيف يمكن تحقيق الاعتراف بالآخر من دون أن يتحول إلى تابع أو مهدَّد؟

يتقاطع تودوروف مع مفكرين مثل شارل تايلور وأكسيل هونيث، الذين يرون أن الاعتراف بالهوية شرط أساسي لبناء علاقات إنسانية عادلة. ويرى تودوروف أن الحل لا يكمن في إلغاء الاختلاف أو تجاوزه، بل في إدراكه كعنصر إثراء لا تهديد.

رابعًا: في مواجهة هنتنغتون – رفض صدام الحضارات

يُعارض تودوروف بوضوح أطروحة صامويل هنتنغتون التي قدمها في مقالته الشهيرة ثم في كتابه صدام الحضارات (١٩٩٦)، والتي تنبأ فيها بأن النزاعات المستقبلية ستكون ثقافية بالأساس، بين حضارات متمايزة لا يمكن التوفيق بينها. بالنسبة لهنتنغتون، الغرب في مواجهة الإسلام أو آسيا، والصراع حتمي لأن القيم متناقضة. في هذا السياق: " الخط الفاصل بين الحضارات سيكون خط المعركة في المستقبل "[١٢]

يرد تودوروف على هذا التصور برؤية إنسانية تؤمن بإمكانية التفاهم بين الثقافات من خلال الحوار والتبادل. لا يرى العالم مُقسَّمًا إلى جزر متنازعة، بل إلى كيانات يمكن أن تتفاعل متى ما أُزيلت الحواجز الأيديولوجية والاستعلائية. يقول تودوروف في أحد مقالاته: الإنسانية لا تقوم على تطابق القيم، بل على الاعتراف بالاختلاف.

خامسًا: بين التنوير والعنصرية – مأزق الحداثة الغربية

في نقده للمركزية الأوروبية، لا ينكر تودوروف مساهمات الفكر الأوروبي في مجالات التنوير والعقلانية وحقوق الإنسان، لكنه في الوقت ذاته يُشير إلى التناقض الداخلي في هذا المشروع: كيف لمن ينادي بالحرية والكرامة الإنسانية أن يُمارس الاستعباد والإبادة؟ هذا التوتر الجذري في بنية الحداثة يدفعه إلى مساءلة خطابها الأخلاقي، خاصة حين يُستعمل لتبرير الاستعمار باسم التحضر.

وفي هذا السياق، يلتقي تودوروف مع مفكرين عرب معاصرين مثل طه عبد الرحمن، الذي يرى أن الحداثة الغربية قد ارتكبت "أخطاءً أخلاقية فادحة حين نصبت نفسها معيارًا كونيًا، دون اعتبار لخصوصيات الشعوب" وعزيز العظمة، الذي ناقش كيف استُخدمت مفاهيم مثل التقدم والعقل لتبرير الهيمنة على الثقافات الأخرى، معتبرًا أن الخطاب الحداثي الغربي "مارس استعلاء معرفيًا

Semi-annual journal issued by Department of Philosophical Studies In Bayt Al-Hikma
No.of deposit at Library and Archives(682)1999
Issn.2224-0934
Info@baytalhikma.iq

على ما سواه من أنساق فكرية" (١٣)

سادسًا: دعوة إلى ما بعد المركزية

لا يكتفي تودوروف بنقد المركزية الأوروبية، بل يدعو إلى تجاوزها نحو نموذج يقوم على الاعتراف المتبادل والتعددية الأخلاقية. وهو يرى أن هذا ممكن من خلال:

أ-إعادة قراءة التاريخ من وجهة نظر الآخرين.

ب-إصلاح المناهج التعليمية لتشمل سرديات غير أوروبية

ت-إعادة الاعتبار للأدب والفنون بوصفها أدوات لتقريب الفجوات الثقافية.

بهذا، يُقدّم تودوروف مساهمة فكرية تتجاوز التحليل نحو البناء، وتُسهم في رسم أفق جديد لعلاقات أكثر عدالة بين الشعوب

ينقلنا تودوروف من فتح أمريكا بوصفه لحظة تأسيسية للمركزية الأوروبية، إلى نقد شامل للحداثة الغربية التي وُلدت من هذه المركزية، ثم إلى مشروع فكري بديل يدعو فيه إلى التعددية والاعتراف. وبينما يتفق مع مفكرين مثل فانون وسعيد في نقد آليات الهيمنة، فإنه يتميز بتركيزه على الجوانب الأخلاقية والإنسانية التي يمكن أن تبني مستقبلًا أكثر انفتاحًا وتسامحًا." (١٤)

الباب الثاني: نقد الحداثة والاستعمار عند تودوروف

الحداثة الغربية في ميزان النقد

يُعرف تزفيتان تودوروف بكونه ناقدًا للحداثة الغربية، لا من موقع معادٍ للتنوير، بل من موقع المدافع عن قيمه الأصيلة في وجه الانحرافات التي لحقت به حين تحوّل من مشروع تحرري إلى أداة للسيطرة والتفوق.

ينطلق تودوروف من أن الحداثة — بعدِها مشروعًا عقلانيًا وإنسانيًا نشأ في أوروبا — قد أنجزت الكثير في مضمار الحقوق والعلوم والمعرفة، لكنها في المقابل، حملت في داخلها تناقضًا جوهريًا: فقد رفعت راية الإنسانية، لكنها مارست اللا إنسانية باسمها.

أولًا: من التنوير إلى الاستعمار

يرى تودوروف أن الحداثة الغربية تحولت من مشروع يدعو إلى تحرر الإنسان إلى مشروع يفرض نموذجًا واحدًا للإنسان.

فعبر استعارتها لمفاهيم مثل التقدم والرقي، بدأت تنظر إلى الشعوب غير الغربية بوصفها في مرحلة ما قبل الحداثة، تحتاج إلى مساعدة للارتقاء إلى مستوى الأوروبي المتحضّر.

هذه النظرة كانت الأساس الفلسفي للهيمنة الاستعمارية التي مورست في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. فبدلًا من الاعتراف بالآخر،

مجلّة نصف سنوية محكّمة تصدر عن قسم الدراسات الفلسفية في بيت الحكمة ـ بغداد
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ٦٨٢ لسنة ١٩٩٩
ISSN ٠٩٣٤-٢٢٢٤ رقم الإيداع الدولي
info@bayalhikma.iq

سعت الحداثة إلى إلغائه أو استيعابه. [١٥]

ويتضح هذا المأزق في شخصيات مثل رينان وجون ستيوارت ميل الذان، على الرغم من إيمانهم بالحضارة والليبرالية، لم يريا بأسًا في استعمار الأمم الأدنى لأنها غير قادرة على حكم نفسها. وهو ما يجعل الحداثة ليست فقط خطابًا معرفيًا، بل أيضًا أداة سياسية للضبط والإخضاع.

ثانيًا: الحداثة والذات الأوروبية

يتحدث تودوروف عن نرجسية الغرب بوصفها خاصية ملازمة للمركزية الأوروبية الحداثية. إذ لم يكن الغرب يكتفي برؤية نفسه كأرقى ما وصل إليه الإنسان، بل كان يُنصّب ذاته معيارًا وحيدًا للحكم على الآخرين.

هذه الرؤية تجد جذورها في الفلسفة الهيغلية، حيث تُعد الشعوب غير التاريخية أقل تطورًا لأنها لم تدخل روح العالم عبر الدولة القومية أو العقل. هكذا، وباسم العقل، جرى نزع التاريخ عن شعوب بأكملها، وتحويلها إلى هامش في سردية التقدم.

وفي هذا السياق، يلتقي تودوروف مع فلاسفة ما بعد الحداثة مثل فوكو ودريدا، اللذان فكّا مفاهيم العقل والعلم والهوية، وأظهرا كيف أنها تُستخدم في بناء السلطة، لا في تحرير الإنسان.

ثالثًا: جدل الأخلاق والقوة

يرى تودوروف أن الحداثة الغربية فشلت في الربط بين القيم الأخلاقية التي رفعتها (مثل الحرية، الكرامة، حقوق الإنسان) وبين الممارسة السياسية الواقعية. فبينما كانت تُنادي بحقوق الإنسان، كانت تبرر العبودية والاستعمار، وتُقصي الآخر باسم الإنسان.

وهذا، في رأيه، لا يعني إدانة الحداثة مطلقًا، بل الدعوة إلى إصلاحها من الداخل، وتذكيرها بجوهرها الأخلاقي: الاعتراف بالكرامة الإنسانية، لا تدمير المختلف.

الاستعمار كنموذج للسلطة والهويات

يتناول تزفيتان تودوروف الاستعمار ليس فقط بعده حدثًا سياسيًا أو عسكريًا، بل بوصفه نموذجًا معرفيًا وأخلاقيًا لإنتاج السلطة والهويات. فالاستعمار، في رؤيته، ليس غزوًا خارجيًا فحسب، بل عملية معقّدة لإعادة صياغة الآخر ضمن بنية ثقافية–أيديولوجية تفرضها الذات الغربية.

يرى تودوروف أن فهم الاستعمار يقتضي التوقف عند الأنساق الخطابية التي تُنتج الآخر المستعمَر، وتحوله من كائن حرّ إلى كائن خاضع، لا فقط بالسلاح، بل بالكلمة والمعرفة والمخيال. وهنا تلتقي رؤيته مع طروحات ما بعد الكولونيالية، وبخاصة إدوارد سعيد وفرانز فانون، الذين شددا على الطابع الخطابي والنفسي للهيمنة الاستعمارية.

Semi-annual journal issued by Department of Philosophical Studies In Bayt Al-Hikma
No.of deposit at Library and Archives(682)1999
Issn.2224-0934
Info@baytalhikma.iq

أولًا: إنتاج الآخر – من الهيمنة العسكرية إلى الهيمنة الرمزية

من خلال دراسته لحملة كولومبوس، يُظهر تودوروف كيف أن الاستعمار يبدأ من اللغة: كيف يُطلَق على السكان الأصليين تسميات الهمج، الوثنيين، البدائيين، وهي تسميات ليست بريئة أو توصيفية، بل تُستخدم لتبرير التعامل معهم بعدهم دون مستوى الإنسانية الكاملة. [١٦].

هذه اللغة تُعيد إنتاج تراتبية قيمية: الأوروبي مقابل غير الأوروبي، العقل مقابل الخرافة، النظام مقابل الفوضى. وبذلك، يتأسس خطاب السلطة، ويصبح مشروع الاستعمار لا مجرد احتلال أرض، بل احتلال هوية.

يُحيلنا هذا إلى نظرية بيير بورديو حول العنف الرمزي، حيث تُمارس السيطرة لا من خلال القهر المباشر، بل من خلال فرض أنماط التسمية والتصنيف على الآخر، بحيث يتبنّاها دون مقاومة[١٧]

ثانيًا: تفكيك الذات والآخر في السياق الاستعماري

ينتقد تودوروف التصور الثنائي الذي يضع الغرب في مواجهة الآخر غير الأوروبي بوصفه طرفًا سلبيًا. ويقترح بدلًا من ذلك فهمًا أكثر تعقيدًا للهويات، بعدِها بُنى ديناميكية متفاعلة.

فالاستعمار لم يُعد تشكيل الآخر فقط، بل أعاد تشكيل الذات الأوروبية أيضًا. ففي مشروع نقل الحضارة، أسقط الأوروبيون مخاوفهم وطموحاتهم على الآخر، وأعادوا تأكيد صورتهم كمركز للتاريخ والمعرفة.

وفي هذا السياق، يتقاطع تودوروف مع ما طرحه هومي بهابها في كتابه مواقع الثقافة (١٩٩٤)، حيث أكد أن الاستعمار ينتج هويات هجينة، متوترة، تعيش بين التمرد والتبعية، بين المحاكاة والمقاومة. [١٨]

ثالثًا: الاستعمار بوصفه خطابًا مستمرًا

لا يرى تودوروف أن الاستعمار انتهى بانسحاب الجيوش أو حصول الدول المستعمَرة على استقلالها السياسي. بل يرى أن هناك استمرارية خفية للاستعمار، تتجلى في أنظمة التعليم، في وسائل الإعلام، في بنى التفكير، وفي الخطابات السياسية الحديثة.

فمثلًا، حين تُصوَّر الهجرة من الجنوب إلى الشمال بوصفها غزوًا ثقافيًا، أو حين تُفرض على الشعوب نماذج اقتصادية غربية باسم التنمية، فإن هذا امتداد للمنطق الاستعماري القديم: التحكم بالآخر وتحديد مصيره دون إشراكه في صناعة قراره.

وبهذا المعنى، يُعيد تودوروف إحياء مفاهيم الاستعمار الجديد (Neocoloniali وهي المفاهيم التي طوّرها فانون وألستر ماكنتاير

مجلّة نصف سنوية محكّمة تصدر عن قسم الدراسات الفلسفية في بيت الحكمة ـ بغداد
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ٦٨٢ لسنة ١٩٩٩
رقم الإيداع الدولي ISSN ٠٩٣٤-٢٢٢٤
info@bayalhikma.iq

وغيرهما، للدلالة على الأشكال الناعمة للهيمنة، سواء كانت ثقافية أو مالية أو مؤسساتية." ان الاستعمار، وقد اجبر على التراجع عسكرياً، عاد في ثوب جديد عبر الاقتصاد والتوجيه الثقافي" [١٩]

رابعًا: نقد تودوروف للأخلاق الغربية في سياق الاستعمار

يشدد تودوروف على أن الكارثة في الاستعمار ليست فقط في القتل والتدمير، بل في فشل الغرب في تطبيق معاييره الأخلاقية على الآخرين. ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا ترفع شعارات حقوق الإنسان والتنوير، كانت تمارس العبودية، وتقيم أنظمة عنصرية، وتدمر حضارات بأكملها.

هذا التناقض الأخلاقي يكشف أن الآخر لم يكن يُعامل بوصفه إنسانًا مكافئًا، بل كموضوع للتطوير أو للإزالة. ومن هنا يأتي نقد تودوروف الحاد لما يسميه أخلاق التفاوت، حيث تُطبّق القيم على الذات، وتُستثنى منها الشعوب الأخرى.

في كتابه نحن والآخرون، يوضح تودوروف أن معيار إنسانية الآخر لا يمكن أن يكون مطابقًا لإنسانيتنا فقط، وإلا فإننا نُكرّر مركزيتنا من جديد. [٢٠].

خامسًا: من التفوق إلى الاعتراف – مقترح تودوروف البديل

لا يكتفي تودوروف بالنقد، بل يُقدّم بديلاً فكريًا وأخلاقيًا يقوم على الاعتراف المتبادل بين الثقافات. ويؤمن أن الخروج من منطق الاستعمار يتطلب:

أ-التخلص من وهم الرسالة الحضارية.

ب-الاعتراف بأن كل ثقافة لها قيمها ومعاييرها

ت-بناء علاقات قائمة على الاستماع المتبادل لا على التلقين والتبشير

وهو بذلك يُشارك مفكرين معاصرين كـ تشارلز تايلور وأمارتيا سين في الدعوة إلى عالم متعدّد، لا يقوم على ذوبان الاختلاف، بل على إدارته بوعي واحترام. [٢١]

يُظهر تودوروف أن الاستعمار لم يكن مجرد مشروع خارجي للهيمنة، بل كان إعادة تعريف للإنسانية نفسها، من خلال استبعاد الآخر. وفي نقده العميق للخطاب الغربي، يقدّم قراءة تؤكد أن التحرر لا يتحقق فقط بالسياسة، بل بالفكر واللغة، وأن مواجهة الاستعمار تتطلب إعادة بناء العلاقة مع الآخر، ليس كمن هو دوننا، بل كمن هو مختلف عنا، ومكافئ لنا.

Semi-annual journal issued by Department of Philosophical Studies In Bayt Al-Hikma
No.of deposit at Library and Archives(682)1999
Issn.2224-0934
Info@baytalhikma.iq

النقد الأوروبي والآثار المعاصرة

إذا كان تزفيتان تودوروف قد وجّه نقده الحاد إلى الحداثة الغربية والاستعمار بوصفهما تعبيرًا عن مشروع للهيمنة، فإنه في الوقت ذاته يُبرز أن هذا النقد ليس حكرًا على الشعوب المستعمَرة أو على التيارات ما بعد الكولونيالية، بل إن جزءًا كبيرًا من الفكر الأوروبي نفسه قد انخرط في مساءلة مشروع الحداثة من الداخل.

لقد شهد القرن العشرون موجة فكرية أوروبية ناقدة لذاتِها، شارك فيها مفكرون وفلاسفة وأدباء رأوا أن الاستعمار لم يكن انحرافًا عن الحداثة، بل ثمرة مُرة لمنطقها الداخلي. من هنا، يتعامل تودوروف مع هذا التيار الأوروبي الناقد بوصفه شريكًا ضروريًا في تفكيك النزعة الاستعلائية الغربية، لا خصمًا ثقافيًا.

أولًا: النقد الأوروبي الداخلي – أصوات من قلب الغرب

يشير تودوروف في أكثر من موضع إلى أن الفكر الأوروبي يحمل في داخله مبادئ مضادة للمركزية الغربية. فهو يستدعي مثلًا أعمال مونتيني وفولتير وروسو، بوصفها نماذج مبكرة لتيار إنساني نقدي، دعا إلى فهم الآخر من موقع المساواة لا التفوق.

في العصر الحديث، يذكر تودوروف بإعجاب مفكرين مثل:

أ-بول ريكور الذي دعا إلى الاعتراف بالآخر كضرورة فلسفية

ب_إيمانويل ليفيناس الذي أكد أن وجه الآخر هو نداء أخلاقي يتجاوز الذات

ت-إدغار موران الذي نادى بفكر معقد يتجنب الاختزال الثقافي ويعترف بالتعدد والاختلاف.

بهذه الطريقة، يُظهر تودوروف أن الغرب ليس كتلة واحدة، بل فضاء للصراع الفكري، يضم نزعات إمبريالية ونزعات تحررية في آنٍ معًا.[٢٢]

ثانيًا: صراع داخل التنوير – حداثة مهيمنة وحداثة نقدية

يرى تودوروف أن من أهم مصادر الخلل في الحداثة الغربية انقسامها بين تيارين:

أ-حداثة مهيمنة، تمثّلها النزعة العقلانية الصارمة، التي تختزل الإنسان في معايير علمية وأدواتية، وتُقصي من لا يندرج تحت مفاهيم العقل والتقدم.

ب- وحداثة إنسانية نقدية، تُدافع عن الكرامة الإنسانية، وتؤمن بالحوار والتعدد، كما نجد في كتابات كانط وهردر ومونتيني وغيرهم.

ت-ويؤكد تودوروف أن الانتصار للحداثة لا يعني الانسياق وراء نموذجها المهيمن، بل تبني تيارها الإنساني-الأخلاقي.

مجلّة نصف سنوية محكّمة تصدر عن قسم الدراسات الفلسفية في بيت الحكمة ـ بغداد
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ٦٨٢ لسنة ١٩٩٩
رقم الإيداع الدولي ISSN ٠٩٣٤-٢٢٢٤
info@bayalhikma.iq

وهنا يتقاطع مع مفكرين مثل يورغن هابرماس، الذي دعا إلى تحديث الحداثة من خلال نقد ذاتي يعيدها إلى أصلها الديمقراطي الحواري[٢٣]

ثالثًا: العولمة بوصفها امتدادًا للمنطق الاستعماري

يرى تودوروف أن ظاهرة العولمة ليست فقط تحولًا اقتصاديًا وتقنيًا، بل إعادة إنتاج لمنطق السيطرة الأوروبي بوسائل جديدة.

ففي كثير من الأحيان، يجري تقديم النموذج الغربي للحياة على أنه النهاية الطبيعية للتاريخ، كما في أطروحة فرانسيس فوكوياما، التي رأى فيها أن الديمقراطية الليبرالية الغربية تمثل الشكل النهائي للحكم. [٢٤]

يعارض تودوروف هذا النوع من الحتمية التاريخية، ويرى فيه استبعادًا للتنوع الثقافي، وإعادة تكريس لمركزية حضارية مغلّفة بلغة الكونية. ومن هنا، يحذر من أن الخطاب الإنساني الكوني يمكن أن يتحول إلى أداة قمع ناعم، إذا لم يُرفَق بإرادة حقيقية في الاعتراف بالاختلاف.

رابعًا: آثار الهيمنة في الحاضر – الاستشراق الجديد

يلاحظ تودوروف أن ما سماه إدوارد سعيد الاستشراق لم يختفِ، بل تحوّل إلى أشكال جديدة في الإعلام، والسياسات الدولية، والخطابات الأمنية.

فعقب أحداث ١١ سبتمبر٢٠٠١، ظهرت موجة جديدة من الاستشراق الأمني الذي يُقدّم الشرق، خصوصًا الإسلام، بوصفه خطرًا حضاريًا. وهذا ما يدفع تودوروف إلى التأكيد على أن الهيمنة الثقافية لا تزال مستمرة، وإن تغيّرت أدواتها. ومن هنا تأتي دعوته إلى قراءة الآخر بعيونه لا بأعيننا، أي إلى تجاوز التمثيلات الجاهزة، والاستماع إلى سرديات الشعوب عن أنفسها، لا عبر نظارات الغرب فقط.

خامسًا: الحاجة إلى نموذج بديل للعلاقات الحضارية

يختم تودوروف هذا الطرح بالتأكيد على ضرورة بناء نموذج جديد للعلاقات بين الحضارات يقوم على:

أ-الاعتراف المتبادل لا التماهي القسري

ب-التعددية الأخلاقية بدلًا من الأحادية القيمية

ت-الحوار لا الصدام، بوصفه خيارًا استراتيجيًا وثقافيًا

Semi-annual journal issued by Department of Philosophical Studies In Bayt Al-Hikma
No.of deposit at Library and Archives(682)1999
Issn.2224-0934
Info@baytalhikma.iq

وهو بذلك يتجاوز نقد الحداثة ليقترح حداثة بديلة، قائمة على المشاركة الإنسانية لا على التراتب، وعلى الذاكرة المشتركة بدلًا من سرديات المنتصرين. في هذا القسم، يُظهر تودوروف أن النقد الحقيقي للحداثة والاستعمار لا يكتمل إلا إذا شمل نقد الذات الغربية من داخلها. فأصوات النقد لم تكن حكرًا على الضحايا، بل خرجت أيضًا من قلب المشروع الغربي نفسه.

كما يُحذّر من إعادة إنتاج الهيمنة في ثوب العولمة أو الخطاب الكوني، ويدعو إلى بناء نموذج حضاري جديد، يتأسس على الاحترام المتبادل، والتواضع الثقافي، والتنوع كقيمة مركزية.

الخاتمة

يكشف هذا البحث عن عمق المشروع الفكري الذي صاغه تزفيتان تودوروف في نقد الحداثة والاستعمار، من خلال إعادة قراءة الفلسفة الأوروبية في ضوء علاقتها بالآخر. لم يكن تودوروف منظّرًا اعتياديًا يعيد إنتاج التصنيفات الفلسفية السائدة، بل مفكرًا مزعزعًا للمسلمات، سعى إلى مساءلة الأسس الأخلاقية والمعرفية التي بُنيت عليها المركزية الأوروبية الحديثة.

وقد ظهر جليًا من خلال الفصول السابقة أن تودوروف لم يتخذ من نقد الحداثة موقفًا عدائيًا أو قطعيًا، بل سعى إلى إصلاحها من الداخل، من موقع القيم التي نشأت عنها، لا من خارجها. فقد دافع عن التنوير لا بوصفه ترسانة فلسفية للعقل التقني أو المشروع الاستعماري، بل بوصفه وعدًا أخلاقيًا للكرامة الإنسانية، وحاجة مستمرة لإعادة تعريف العلاقة بين الذات والآخر.

برز في تحليلات تودوروف كيف أن الاستعمار لم يكن مجرد سياسة توسعية، بل خطابًا متكاملًا أنتج صورًا نمطية عن الآخر، وأعاد صياغة الهويات وفق منطق التراتب والتفوق. ولهذا، فإن مشروعه النقدي لا يقتصر على تفكيك الماضي، بل يمتد ليشمل الحاضر؛ إذ أظهر كيف أن العولمة، وسياسات الهيمنة الثقافية، وإنتاج الاستشراق الجديد، ما هي إلا امتدادات ناعمة للمركزية الغربية، وإن اختلفت أدواتها.

مجلّة نصف سنوية محكّمة تصدر عن قسم الدراسات الفلسفية في بيت الحكمة ـ بغداد
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ٦٨٢ لسنة ١٩٩٩
ISSN ٠٩٣٤-٢٢٢٤ رقم الإيداع الدولي
info@bayalhikma.iq

ما يميز تودوروف أنه لم يقف عند حدود النقد، بل قدّم رؤى بديلة مبنية على الاعتراف المتبادل، والتعددية الأخلاقية، وإعادة بناء العلاقات الحضارية بعيدًا عن منطق الصدام أو الذوبان. وقد جعل من الأدب والفن والتاريخ أدوات لفهم أكثر إنسانية للعالم، معتبرًا أن الإنسان لا يُعرَّف من خلال انتمائه القومي أو الثقافي فقط، بل من خلال قدرته على الاستماع للآخر، وعلى تأويل تجارب الغير من دون إنكار خصوصيتها.

وفي ضوء هذا التحليل، يفتح البحث آفاقًا جديدة لفهم فلسفة التاريخ بوصفها علمًا إنسانيًا يتجاوز الحياد الظاهري والسرد الخطي للأحداث، ليتحوّل إلى خطاب نقدي يعيد طرح الأسئلة حول السلطة، والمعرفة، والهوية. فالتاريخ، من منظور تودوروف، ليس سجلًا للانتصارات، بل مرآة للصراعات التي خاضها الإنسان من أجل الاعتراف، ومن أجل أن يكون له صوت في عالم لا يعترف دومًا بالمختلف.

الاستنتاجات الأساسية

١-أن مشروع تودوروف الفكري يعيد تأويل مفاهيم الحداثة والتنوير من خلال منظور نقدي أخلاقي، يربط بين الفلسفة والسياسة والثقافة.

٢-أن الاستعمار، في فكر تودوروف، هو منظومة خطابية وهيكل معرفي أنتج الآخر كمجرد صورة وظيفية في خطاب الهيمنة الغربية.

٣-أن نقد تودوروف للحداثة ينبني على التمييز بين حداثة مهيمنة وحداثة إنسانية، داعيًا إلى إحياء الثانية باعتبارها مشروعًا قابلًا للاستمرار.

٤-أن مساهمته في نقد المركزية الأوروبية تنتمي إلى تيار أوسع من النقد الذاتي داخل الفكر الغربي، شارك فيه مفكرون من أمثال ريكور وهابرماس وليفيناس.

٥-أن فكر تودوروف يشكّل أساسًا متينًا لبناء رؤية متعددة الأصوات للعلاقات الحضارية، تتجاوز منطق الاستيعاب والصدام، نحو نموذج قائم على الاعتراف والتكافؤ.

٦- أن فكر تودوروف يوسّع من أفق فلسفة التاريخ عبر مساءلة البُنى الخطابية التي صاغت سرديات التفوق الحضاري، مُبرزًا ضرورة الانتقال من تاريخ المنتصرين إلى تاريخ الاعتراف، ومن مركزية الذات إلى تعددية السرديات.

Semi-annual journal issued by Department of Philosophical Studies In Bayt Al-Hikma
No.of deposit at Library and Archives(682)1999
Issn.2224-0934
Info@baytalhikma.iq

آفاق البحث

يفتح هـذا البحـث المجـال لدراسـات مقارنة أوسع بين تودوروف ومفكرين آخرين من العالمين العـربي والإسـلامي، مثل طه عبـد الرحمن، ومحمد عابـد الجابـري، وعبد الله العـروي، في نقد الحداثة والهوية والتاريخ. كما يُمكِن توسيع المقاربة لتشمل تفاعـلات فكر تودوروف مـع الأزمات المعاصرة، مثل صعود الشـعبويات، وتحديـات التعدد الثقافي في أوروبا، والخطابات الإعلامية المعولمة.

الهوامش

(١):ينظر:هيغـل، فينومنولوجيا الروح، ترجمة: كمال الحاج، منشورات عويدات، ١٩٨٠، ص ١١٣-١٢٨.

(٢) : سـارتر، ج. ب، الوجـود والعـدم ترجمـة: جـورج طرابيشي، دار الآداب،١٩٨٦، ص٣٢٥.

(٣) : ليفينـاس، إ.،الكلية واللامتناهي،ترجمة: منذر عياشي، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٢،ص٨٦.

(٤) : ينظـر: سـعيد، إ..ص، الاسـتشراق ترجمـة كـمال أبـو ديب،بـيروت، مؤسسـة الأبحـاث العربيـة،١٩٩٥، ص٣٨-٥٢.

(٥) : فانون، ف.، معذبو الأرض،ترجمة سامي الدروبي، دار الفارابي، ٢٠٠٢، ص، ٤١.

(٦) : تودوروف، ٢٠٠٤، ص. ٤٢-٦٨.

(٧) : للمزيـد، يراجـع: مونتينـي، ميشـيل دي، ١٥٨٠، المقالات، وخاصة مقالته "عن آكلي لحوم البشر" (Des Cannibales)، ج١، ص٢٠٨-٢٢٢، ضمن الطبعة الفرنسية الكاملة:

Montaigne، M. (1580). Essais، Livre I، "Des Cannibales"، pp. 208–222. Édition de la Pléiade، Gallimard.

(٨) : تودوروف، ٢٠٠٤، ص. ٨٧-١٠٨.

(٩) : فوكـو، ميشـل،. المعرفة والسـلطة،ترجمة عبد السـلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، ٢٠٠٣، ص٢٩.

(*) (تودوروف، ٢٠٠٤،ص.١٣٣-١٤٤)

(١٠) : تودوروف، ٢٠٠٤، ص. ١٢٢.

(١١) : سـعيد، إدوارد، الاسـتشراق،ترجمة كـمال أبـو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٥، ص٢٤.

(١٢) : هنتنغتـون، صامويل،صـدام الحضـارات وإعـادة تشـكيل النظام العالمي،ترجمة: طلعت الشايب،القاهرة: دار سطور. (١٩٩٧، ص٤٤.

(١٣) : طـه عبد الرحمن، روح الحداثـة. المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦، ص٥١). و العظمة، عزيز،. الإسـلام والحداثة. مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٣، ص٧٤.

(١٤) : ينظـر: تودوروف، تزفيتان، روح الانوار (ترجمة: روز مخلوف، دار الساقي. ٢٠٠٨، ص ١٣٩-١٤٢.

(١٥) : ينظر:تودوروف، ٢٠٠٨، ص. ٤٧.

(١٦) : ينظر: تودوروف، ٢٠٠٤، ص. ٥٥-٧٣.

(١٧) : ينظر: بورديو، بيير،الهيمنة الرمزية،ترجمة نظير جاهل، المنظمة العربية للترجمة،٢٠٠٤، ص ١٥-٢٢.

(١٨) :ينظـر: Bhabha، H. K. (١٩٩٤). The Location of Culture. Routledge، pp ١١٢-١٢٠))

(١٩) :فانـون، فرانز، معذبو الارض، ترجمة: سـامي الدروبي وجمـال الانـاسي. بـيروت: دار الفـارابي، ط١، ٢٠٠٤، ص١٥٤.

مجلّة نصف سنوية محكّمة تصدر عن قسم الدراسات الفلسفية في بيت الحكمة ـ بغداد
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ٦٨٢ لسنة ١٩٩٩
رقم الإيداع الدولي ISSN ٠٩٣٤-٢٢٢٤
info@bayalhikma.iq

(٢٠) : ينظر:تودوروف، ١٩٨٩، ص. ١٧.

(٢١) : تايلور، تشارلز، تعدد الثقافات، تفحص سياسة الاعتراف، ترجمة: عبد الرحيم الدقون، الناشر: عقول الثقافة للنشر والتوزيع، ٢٠١٨، ص٢٥-٧٣.

(٢٢) : ينظر:تودوروف، ٢٠٠٨، ص. ٩١-١٠٦.

(٢٣) : ينظر:هابرماس، يورغن،الخطاب العقلاني والحداثة. المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢، ص. ٢٤-٣٥.

(٢٤) :ينظر: فوكو ياما، ١٩٩٢، ص١١.

المصادر والمراجع

١- بورديو، بيير،الهيمنة الرمزية،ترجمة نظير جاهل، المنظمة العربية للترجمة،٢٠٠٤

٢-تودوروف، تزفيتان. (١٩٨٩). نحن والآخرون (ترجمة بشير السباعي). الكويت: دار سعاد الصباح

٣-تودوروف، تزفيتان. (٢٠٠٤). فتح أمريكا: مسألة الآخر (ترجمة بشير السباعي). القاهرة: المركز القومي للترجمة

٤-تودوروف، تزفيتان. (٢٠٠٨). روح الأنوار (ترجمة روز مخلوف). بيروت: دار الساقي

٥- تايلور، تشارلز، تعدد الثقافات، تفحص سياسة الاعتراف، ترجمة: عبد الرحيم الدقون، الناشر: عقول الثقافة للنشر والتوزيع، ٢٠١٨

سارتر، جان بول. (٢٠٠٧). الوجود والعدم (ترجمة: جورج طرابيشي). بيروت: دار الآداب-٦

٧-سعيد، إدوارد. (١٩٩٥). الاستشراق (ترجمة كمال أبو ديب). بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية

٨-فانون، فرانز. (٢٠٠٢). معذبو الأرض (ترجمة سامي الدروبي). بيروت: دار الفارابي

٩-فوكو، ميشيل. (٢٠٠٣). المعرفة والسلطة (ترجمة عبد السلام بنعبد العالي). الدار البيضاء: دار توبقال

١٠-فوكوياما، فرانسيس. (١٩٩٢). نهاية التاريخ والإنسان الأخير. القاهرة: دار الشروق

١١-ليفيناس، إيمانويل. (٢٠١٢). الكلية واللامتناهي (ترجمة ندى شهوان). بيروت: المنظمة العربية للترجمة

١٢-هابرماس، يورغن. (١٩٩٢). الخطاب العقلاني والحداثة. بيروت: المركز الثقافي العربي

١٣-هنتنغتون، صامويل. (٢٠٠٣). صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي (ترجمة محمد محمود خليفة) بغداد: دار سطور.

١٤-هيغل، جورج ف. ف. (٢٠١٩). فينومنولوجيا الروح (ترجمة ناجي العونلي). بيروت: المنظمة العربية للترجمة

١٥-طه عبد الرحمن. (٢٠٠٦). روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس حداثة إسلامية. بيروت: المركز الثقافي العربي

١٦-العظمة، عزيز. (١٩٩٣). الإسلام والحداثة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

17-Montaigne، M. (1580). Essais. Paris: Bhabha، H. K. (1994). The Location of Culture. London: Routledge

18-Fanon، F. (1961).

19-The Wretched of the Earth. New York: Grove Press

Semi-annual journal issued by Department of Philosophical Studies In Bayt Al-Hikma
No.of deposit at Library and Archives(682)1999
Issn.2224-0934
Info@baytalhikma.iq

Tzvetan Todorov and the Philosophy of History: A Critique of Modernity and Colonialism

Assistant Professor DR. Talib Muhammad Karim
Al-Mustansiriya University_College of Arts_Department of Philosophy

Abstract

This study explores the ideas of Tzvetan Todorov through the lens of the philosophy of history. Todorov, a prominent thinker in the fields of cultural criticism and postcolonial studies, devoted significant attention to questions of identity, power, and the representation of the Other. In works such as The Conquest of America: The Question of the Other, he analyzes the historical encounter between Europe and the indigenous peoples of the Americas, revealing the epistemological and moral foundations of colonial domination. By examining his critique of modernity, colonialism, and Eurocentrism, this research aims to understand how Todorov's thought contributes to broader philosophical reflections on history, human dignity, and intercultural dialogue.

Keywords:Tzvetan Todorov in the Philosophy of History: Critiquing Modernity and Colonialism